ابن البواب.. عبقري الخط العربي

كان الخط الذي يكتب به العرب في بدء ظهور الإسلام هو الخط الأنباري الحيري، الذي سُمِّي بعد انتقاله إلى الحجاز بـ"الحجازي"، وهو أصل الخط النسخ، وكان يكتب به عدد قليل من العرب، ولا يتجاوز من يكتبه من قريش بضعة عشر شخصًا، ولما انتصر النبي (ﷺ) في "بدر" وأسر جماعة من قريش كان فيهم من يتقن الكتابة، قَبِلَ الفداء من الأميين منهم، وجعل الكاتب يفدي نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة، فانتشرت الكتابة بين المسلمين، وما كاد يتم نزول القرآن حتى كان لرسول الله (ﷺ) أكثر من أربعين كاتبًا.

وأشهر كُتاب الصحابة أربعةٌ وهم ممن كتبوا المصاحف لعثمان، وهم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

ولما فتح المسلمون الممالك نزلت جمهرة من الكتاب الكوفة، واعتنوا بتجويد الخط العربي، وهندسة أشكاله؛ حتى صار خط أهل الكوفة مميزًا بشكله عن الخط الحجازي، واستحق أن يُسمى باسم خاص هو "الخط الكوفي"، وكانت تكتب به المصاحف.

وفي عهد الدولة الأموية بدأ الخط العربي في السمو والارتقاء، ونبغ في نهاية عصرها رجل يقال له "قطبة المحرر"، اشتهر بجمال الخط، ويُعزى إليه الفضل في تحويل الخط العربي من الشكل الكوفي إلى ما يقارب الصورة التي نرى الخط عليها الآن، وهو الذي ابتكر القلم الجليل الذي يُكتب به على المباني ونحوها، وهو ما نسميه الآن بالخط "الجلي" أي الكبير الواضح.

صورة من كتاب النبي عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس بخط ابن البواب (يسار)

وفي صدر الدولة العباسية لَمَع في فن كتابة الخط "إبراهيم الشحري" وأخوه "يوسف"، وقد ولّد الأول من الخط "الجليل" قلم الثلثين، ثم ولّد قلم الثلث، ووّلد يوسف من "الجليل" قلمًا دقيقًا للتوقيع، أطلق عليه "القلم الرِّياسي" نسبة إلى "الفضل بن سهل" ذي الرياستين وزير المأمون، الذي أمر ألا تحرر الكتب السلطانية إلا به.

وتعلم "الأحول المحرر" الخط من "إبراهيم الشحري"، وأجاد في فنه، واخترع أقلامًا جديدة مبتكرة، وعن الأحول أخذ الوزير "أبو علي محمد بن مقلة" وأخوه "أبو عبد الله الحسن"، وتم على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التي نعرفها الآن، كما قدّرا مقاييس الحروف وأبعادها وضبطاها ضبطًا محكمًا، ووضعا القواعد لها، وعن الوزير "ابن مقلة" أخذ "أبو عبد الله بن أسد" القارئ المُتوفّى سنة (410هـ = 1019م)، وعلى يديه تعلم "ابن البواب" عبقري الخط العربي، موضع دراستنا اليوم.

نشأة ابن البواب

في بغداد وُلد "أبو الحسن علي بن هلال بن عبد العزيز"، المعروف بابن البواب؛ لأن أباه كان يعمل بوابًا، ولا يعرف على وجه اليقين تاريخ مولده، وإن كان يرجح أنه ولد في حدود سنة (350هـ = 961م).

نشأ ابن البواب في بغداد، وتلقى علوم العربية عن أبي الفتح عثمان بن جني اللغوي المعروف، المتوفَّى سنة (392هـ = 1002م)، وتعلم فنون الكتابة الخطية على يد ابن أسد الخطاط المشهور.

عمل ابن البواب في أول شبابه ومستهل حياته في تزيين سقوف البيوت وجدرانها، ثم عمل في صناعة الأختام قبل أن يعمل في مجال الخط الذي برع فيه.

وكان كاتبًا ماهرًا إلى جانب كونه خطاطًا بارعًا، وله رسالة بارعة أنشأها في فن الكتابة، ذكرها "ياقوت الحموي" في معجم الأدباء، وأثنى ابن الفوطي على أدبه، فقال: "ورزق مع ملاحة الكتاب محاسن الآداب، من الفضل الظاهر والنظم الباهر".

طريقته في الخط

نماذج من خطوط ابن البواب

يذكر المؤرخون أن ابن البواب هذب طريقة ابن مقلة الخطاط العظيم، ونقحها وكساها طلاوة وبهجة. وابن مقلة هذا بلغ من الإتقان والذيوع إلى الحد الذي وصفه "أبو حيان التوحيدي" بأنه نبي في الخط، أُفرغ الخطُّ في يده كما أوحي إلى النحل في تسديس بيوته. ويصفه الثعالبي بأن خطه يضرب به المثل في الحسن؛ لأنه أحسن خطوط الدنيا. فإذا كان هذا هو حال ابن مقلة الخطاط الكبير، فانظر إلى مبلغ ابن البواب في هذا الفن.

ويرى القزويني في "آثار البلاد": "أن ابن البواب نقل طريقة ابن مقلة إلى طريقته التي عجز عنها جميع الكتاب من حسنها وحلاوتها وقوتها وصفائها، فإنه لو كتب حرفًا واحدًا مائة مرة لا يخالف شيء منها شيئًا؛ لأنها قلبت في قالب واحد".

وقد درس المستشرق "رايس" خصائص خط ابن البواب، مستعينًا بالمصحف الشريف الذي خطّه ابن البواب، والمحفوظ في مكتبة "جستر بيتي" بدبلن، وقام بالمحاولة نفسها الباحث العراقي هلال ناجي في كتابه "ابن البواب" عبقري الخط العربي عبر العصور. واستطاع أن يقف على خصائص طريقة ابن البواب في الكتابة من خلال الاستعانة بنصوص له، تصف الطريقة المثلى لشكل كل حرف وهيئته.

آثاره

ترك ابن البواب منظومة في فن الخط وآثارًا فنية خطها للمصحف الشريف وبعض الكتب. أما المنظومة فهي: رائية ابن البواب في الخط والقلم، وهي في أدوات الكتابة، وقد نشرها نفر من الباحثين مثل: محمد بهجة الأثري، ولها شرح بقلم ابن الوحيد شرف الدين محمد بن شريف الزرعي، المتوفى في القاهرة سنة (711هـ = 1311م) بعنوان "شرح ابن الوحيد على رائية ابن البواب"، ونشر هذا الشرح في تونس سنة (1387هـ = 1967م).

ومن آثاره الباقية: المصحف الذي كتبه في بغداد سنة (391هـ = 1000م)، وهو محفوظ في مكتبة "جستر بيتي" في دبلن بأيرلندا، وهو مزخرف زخرفة رائعة لا تقل جمالاً عن خطه، وهي من عمل ابن البواب نفسه.

وخط رسالة أبي عثمان بن بحر الجاحظ في مدح الكتب والحث على جمعها، وهي محفوظة في خزانة متحف الآثار التركية الإسلامية بالآستانة، وهي مختومة بقوله: "كتبه علي بن هلال حامد الله تعالى على نعمه".

وخط شعر سلامة بن جندل، وتحتفظ خزانة "قصر بغداد" بمتحف "سراي طوب قبو" بالآستانة بنسخة منها، كما تحتفظ مكتبة "آيا صوفيا" بالآستانة بنسخة أخرى، ومن آثاره التي وصلتنا "دعاء روي عن زيد بن ثابت"، وديوان شعر الحادرة، وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية، ورسالة أحمد بن الواثق إلى محمد بن يزيد التمالي النحوي يسأله عن أفضل البلاغتين.

وفاته

وقد لقي ابن البواب الثناء والتقدير من المؤرخين، فأجمعوا على أنه كان إمامًا في الخط لم ينافسه أحد، ولقبوه بألقاب بديعة، فيقول عنه الذهبي: إنه ملك الكتابة. ولقبه المؤرخ ابن الفوطي بأنه "قلم الله في أرضه"، ومدحه ابن الرومي، فقال يمدح جمال خطه:

ولاح هلال مثل نون أجادها
بجاري النُّضار الكاتب ابن هلال

وظل ابن البواب موضع تقدير وإجلال حتى لقي ربه في (2 من جمادى الأولى 413هـ = 3 من أغسطس 1022م).

أحمد تمام

أهم مصادر البحث:

-

ابن خلكان- وفيات الأعيان- تحقيق إحسان عباس- دار الثقافة- بيروت- بدون تاريخ.

-

ياقوت الحموي- معجم الأدباء- دار الفكر- بيروت- (1400هـ = 1980م).

-

هلال ناجي- ابن البواب عبقري الخط العربي- دار الغرب الإسلامي- بيروت (1998م).

-

محمد طاهر الكردي- تاريخ الخط العربي- الرياض (1402هـ = 1982م).